الشباب... آفاق وأبعاد

أ. د. حسين جمعة*

الملخص

يبنى العقل المعياري وفق الغايات التي ينبغي أن تحقق المُثُل الوطنية العليا؛ ومنظومة القيم الإنسانية والخلقية... ولعل هذه الأهداف تفرض على المجتمع؛ ومؤسساته اعتماد نظرية معرفية علمية وموضوعية قابلة للتطبيق؛ لتصبح أنماطًا سلوكية واقعية وخيرة.

وما من أحد يغفل عن أثر التربية الاجتماعية والثقافية في تنشئة الأجيال ولا سيما شريحة الشباب؛ بوصفها تنمية ذاتية وموضوعية؛ وأسلوبًا يمنح الشباب الثقة والقدرة على عملية التقدم والابتكار في بناء الشخصية الوطنية والقومية. وربما يبرز ذلك كله في وقت الأزمات والكوارث الكبرى، والحروب المتنوعة... لأن عددًا غير قليل من الشباب يسقطون في وهاد عدم التوازن، وربما يسهمون في تمزيق البنى الاجتماعية قبل الوطنية.

مراجعة عقلية ومعرفية نقدية للواقع؛ والقيام بمطابقة بين المدخلات والمخرجات التربوية والمعرفية، وإيجاد المناخ المناسب للحرية والإنتاج والإبداع لهذا كله كان لابدَّ من الحديث عن البيئة المتخلفة، والذهنية المعرفية المعطوبة، وعدم النجاح في تحقيق المواطنة الحقيقية، ممَّا أدى إلى هدم الهوية الوطنية والقومية في نفوس بعض الناشئة، والشباب، وانهيار منظومتها الخلقية والوطنية الجامعة...

ولعل ذلك كله جعل الباحث يشدد على عملية التربية المتكاملة وإجراء... وهذا كله يفرض على الجميع الاتصاف بالإرادة الواعية والمسؤولية والاعتراف بالآخر، والحوار معه على الدوام لتحقيق التناغم النفسي قبل الاجتماعي؛ ومن ثم تحقيق تنمية وطنية شاملة ومتكاملة أساسها الشباب لأنهم العنصر الأهم فيها.

* جامعة دمشق ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

Youth in Syria: The Way Forward

Dr. Hussein Juma'a**

The Standard human mind is designed to achieve goals based on high national principles and humanitarian and moral values. These goals make it necessary for society to adopt an objective scientific knowledge theory that is applicable so that it can become good and realistic behavioral patterns. The effect of social and cultural education on the upbringing of generations, particularly the youth, cannot be denied, nor over emphasized, as it is an objective self-development, and a means to empower the youth and to give them the ability and confidence to achieve progress and innovation in building the nationalistic personality. This is mostly manifested in times of great crises, disasters and wars, because many young men may lose balance and security, and thus may contribute or even engage in tearing out the social and nationalistic structures. It is important, therefore, to discuss the issue of the regressive environment, and the twisted knowledge and mentality. It is also necessary to discover the reasons behind the failure in achieving real citizenship that led to the destruction of the nationalistic identity in the minds of some youth, and the collapse of the collective moral and nationalistic system. This research, therefore, focuses on the need for a holistic approach to education and upbringing, on the need to conduct a critical intellectual recalibration of the reality, and the appropriation of the inputs and outputs of the education and knowledge to find the appropriate environment for freedom, production and creativity. This obliges all to be accountable and to have the awareness and will to recognize and tolerate the other, and to conduct a continuous dialogue to achieve social and psychological harmony that will lead to a comprehensive and integrated national development with youth as the essential component.

**Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic Language and Literature, Damascus University.

1 . أهمية البحث:

لم يَعُدْ أَحَدٌ يشك في أن الشباب/لفظ يقع على الذكور والإناث في أي أمة أو قومية أو جماعة؛ ويُعَدُّ في كل زمان ومكان جوهر الأمل الحقيقي في البناء والنهوض حاضرًا؛ ومستقبلًا... فيه تتركز القدرة الفكرية والجسدية وقوة العمل والإنتاج على أي مستوى وصعيد، وهو العَصَب الأساسي للقوات المسلحة والأمنية وخلاصة الفعل الحيوي، وعنصر التنمية الشاملة. ومن ثم تكمن أهمية هذا البحث في أن الأنظار والآمال تتجه إلى الشباب بوصفه العنصر الأهم في الحياة، فهو الجوهر الذي يُغني الأرض الطيبة بصدق العَمل؛ وروح الفكر، ونبل الشعور، وإخلاص الإرادة بما يثري الحياة؛ ويطورها نحو الأفضل... وحين وضع بعض الدول العظمى الاستراتيجيات الكبرى لتطبيق حُلُم مبرمج يزعزع الجغرافية السياسية للدول ولاسيما الوطن العربي؛ وفرض هيمنة غربية مطلقة عليه رأينا عددًا من "المفكرين وصناع القرار في الامبراطورية الأمريكية"[1] وضعوا نصب أعينهم أهمية الشعارات والأفكار التي تتركز في الحرية والديمقراطية وجعلوها سبيلهم لتنفيذ أهداف ذلك الحلم؛ والتوجه بها إلى الشباب قبل غيرهم، فسخروا إعلامهم وثقافتهم ومناهجهم لغسل أدمغة شريحة الشباب؛ ونقلها من موقع الانتماء الوطني الواعي إلى منزلة تلبي أغراضهم... ثم وَفروا لهذه العملية كل الأسباب المقنعة مستغلين الثغرات القاتلة التي فتكت بالبنية الاجتماعية لأي مجتمع ذاتيًا وخلقيًا سياسيًا وثقافيًا؛ دينيًا واقتصاديًا... وراحوا يشوهون الأنفاس البريئة التي تخرج من أفواه الشباب؛ فسقط منها من سقط؛ وضَلّ مَنْ ضَلَّ؛ وماج مَنْ ماج؛ إذ صَنَعوا من اللعب على العقول وَهْمًا يقتحمون به الوجدان؛ ويقبضون فيه على الأرواح، وكأنه غدا يحمل المَنَّ والسَّلْوى؛ على حين لا يحمل إلا السّراب؛ بوصفه يخفي السّمَّ القاتل، ويجسد القدر الحامل للموت والدمار...

2 . إشكالية البحث:

وحينما أتحدث عن واقع الشباب في الوطن العربي عامة وسورية خاصة؛ أريد أن أضع يدي على شريحة الشباب في الأزمة الكارثية التي وقعت في ظل ربيع الخراب العربي[2] منذ أواخر (2010م)، فالشباب سقط في وهادِ نار العَصبية الهوجاء والفتنة

[1] انظر: عاصفة على الشرق الأوسط الكبير.

[2] انظر ذلك بالتفصيل في كتابنا: سورية الاستهداف والمؤامرة: ص: 15–33.

المذهبية الرَّعناء؛ والطائفية العمياء[1]... وقد رأينا عددًا غير قليل من الشّباب يفقدون توازنهم وينخرطون في التنظيمات الإرهابية المتطرفة مثل: (القاعدة)، و(داعش)، و(جبهة النصرة) فضلًا عن سقوط فتيات كثيرات في الغيّ والضلال، أو ما سمّي جهاد النكاح... ثم هتك الجميع الكرامة الآدمية وانغمسوا في جرائم بشعة مزقت بَهَاء الوطن والمواطنة؛ وبراءة التآخي والعيش المشترك لأرض الحضارة؛ أرض الشمس والضياء... فإذا كنا محتاجين إلى التغيير والتطوير، فهل نحن مضطرون إلى قتل بعضنا بعضًا؛ أو إلى تمزيق البنية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية؛ أو تدمير البنى التحتية للدولة ومؤسساتها؟ وهل جربنا بقية الأساليب التحررية السلمية ولم نفلح في الخلاص من الجهل والتخلف والظلم؛ وأثبتت إخفاقها وعدم نجاعتها؟!.. الجواب سأتركه للعقلاء جميعًا...

3 . أهداف البحث:

هبطت كل الأوزار والآثام دفعة واحدة في أرض العروبة وانزلقت من تونس ومصر؛ إلى ليبيا واليمن وتركزت في سورية؛ التي حملتها على نزف الجراح، وصبيب الدماء؛ ونشيج البكاء؛ وخوف الرجاء... فار التنور؛ وطغى الطوفان على الجبال والهضاب؛ وضجَّ الحجر والبشر يهتفون بولادة الأمل... لذا علينا دراسة ما يتعلق بواقع الشباب، من أجل التوجه إلى بناء مستقبل يغير ما نحن فيه.

وبناء عليه سنقف عند مفهوم الشباب، ثم نقوم بقراءة موجزة للبيئة المتخلفة التي أدَّت إلى تلك الأزمة؛ متجاوزين كل ما يرتبط بها خارجيًا؛ وإن كان لدينا هو الأصل الذ بنينا عليه عددًا من البحوث المنشورة سابقًا[2]؛ وسننتهي إلى رؤى البناء للمستقبل؛ في (آفاق وأبعاد).

4 . مفهوم الشباب:

في البداية لا بد لنا من تحديد مفهوم الشباب؛ والشريحة التي تنضوي تحته... فالشباب يمثّل القدرة العقلية والجسدية على التفكير والعمل؛ والإنتاج واستمرار الارتقاء بالذات الفردية والجمعية، والنهوض بحياة الوطن. وإذا كان العمل يختلف بنوع الوظيفة

---

[1] انظر: عاصفة على الشرق الأوسط الكبير: ص: 36-42/40 وما بعدها.

[2] انظر كتابينا: (سورية؛ الاستهداف والمؤامرة)؛ و(الأزمة السورية وثقافة التكفير الإرهابي)؛ وهناك كتب أخرى لباحثين سوريين وعرب مثل إدريس هاني من المغرب؛ ورياض الصيداوي من تونس، وناديا خوست وعدنان عزام ولبانة مشوح من سورية.

والفائدة التي يقدمها إلى المجتمع أينما كان موقعه وجنسه... فإن كل عامل مُنْتج يُمْكن أن يصنف في شريحة الشباب... وكل إنسانٍ غير مُنتج يُصبح خارج التصنيف الذي نرتئيه. فالمريض مرضًا دائمًا، والعاجز عجزًا كليًا، والشيخ الدالف الهَرم؛ والطفل يقع خارج دائرة الشباب. وأيًا ما يكن الوعي الاصطلاحي لمفهوم الشباب فإننا نرى ربط الشباب بالفُتُوَّة والقدرة على العمل والإنتاج؛ مع إعطاء الشريحة العمرية القوية المتوسطة الأعمار أهمية خاصة قبل غيرها؛ لأنها أُسُّ الشباب؛ وهي التي تجسد البناء والتطور فهي الحاضر والمستقبل بينما المتقدمون في أعمارهم بعد سن الأربعين لا يشكلون إلا الحاضر؛ الذي يفاد من خبراته وجهوده.

أمَّا الطَّلبة فإنتاجهم يدخل في باب الادّخار؛ علمًا أنهم قادرون على الإنتاج إذا ما رغبوا في استثمار قدراتهم الفكرية أو الجسدية، ولكن الشغف بتحصيل المعرفة؛ وتحصين الذات ما زال هاجسهم الأصيل.

وإذا كنا نتوسع في مفهوم الشباب فإنه لا يلغي المفهوم المعروف والشائع مما تواضع عليه القدماء وبعض اللغويين[1] والفلاسفة لشريحة الشباب؛ إذ حصروها بالتقسيم الزمني لعمر الإنسان... فهو يخلق جنينًا، ثم رضيعًا، فطفلًا، ثم مراهقًا فشابًا حتى عمر (35)، ثم كَهْلًا حتى الخمسين، ثم شيخًا كبيرًا؛ حتى الخامسة والسبعين، ثم دالفًا هرمًا فيما بعد ذلك...

5 . البيئة المتخلفة:

لم يكن التخلف أو الجهل، أو الفساد؛ أو... حكرًا على مُجتمع دون مُجتمع؛ أو أمة دون أمة... وهو لا يظهر بين لحظة وأخرى وإنما هو تراكم زمني يؤدي إلى تأزم العقل واضطرابه، أو سقوطه في وهم التبعية والتقليد؛ وتناسخ الآراء والعلوم التي تشيع بين الناس لتصبح أمرًا ثابتًا من طبيعة الواقع الموروث، والمعرفة النمطية التي سادت في مرحلة ما، ومجتمع ما... وإن وصل المجتمع إلى مثل ذلك فهذا يعني انسداد الأفق في حَل أي معضلة ما يستدعي الثورة على الواقع المؤلم المنحرف لإعادته إلى وضعه الطبيعي، **لأن الثورة ـ بهذا الوعي ـ فعل اجتماعي ثقافي إرادي واعٍ يستند إلى رؤية علمية موضوعية ومنهج دقيق لتغيير الواقع القديم؛ وإعادة بنائه بطرائق حداثية متقدمة وراقية...**

[1] انظر: لسان العرب: (شبب، فتى) و(شيخ، وشيب، ويفع، ودَلف ودنف، ورهق، وطفل وكهل...).

وحينما كان ذلك كذلك نرى أيضًا أن لكل ثورة شروطًا لا بُدَّ من تحقيقها حتى تكتمل عناصر النجاح من أجل إعادة بناء المجتمع بناء صحيحًا وسليمًا وفاعلًا... ويقع على عاتق مثقفي المجتمع؛ وتياراته السّياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية مسؤولية كبرى في ذلك كله... وهذا يؤكد أننا محتاجون إلى ثوّار حقيقيين ومفكرين قادرين يحللون الواقع الموضوعي؛ ويدرسون بعمق الحياة الاجتماعية ونُظُمها وما يرتبط بها، من طرائق العيش؛ وسُبُل التفكير؛ وإدارة وسائل الإنتاج، والتوزيع العادل للثروة؛ والمساواة في ظل القانون؛ وتنفيذ برامج النهوض الصحيحة وفق أحدث التجارب العلمية والموضوعية، بعيدًا عن النفاق والبَذَاءة، والخداع والتمظهر الكاذب... ولا يمكن للإرادة والقوة التي يملكها أصحاب الحق أن تصل إلى أهدافها من دون تلك البرامج والتجارب وغيرها مما يستدعي التغيير والنهوض...

وبناءً على هذا الوعي لابدَّ من دراسة ما يأتي:

أ . الذهنية المعرفية المعطوبة:

تعرض العقل العربي لتشوهات كثيرة أدت إلى سقوطه في الاضطراب أو الجمود أو العطب... ولم يعد قادرًا على المبادرة والإنتاج المبتكر؛ فراح يجتر القوالب الجاهزة لديه سواء كانت تراثية أم معاصرة... وإذا كان العلم في بعض وجوهه ينتج تناسخ العلوم المتنوعة؛ والآراء الكثيرة في أنساق محددة تشيع أحيانًا في زمن ما، ومكان ما فإن ما ابتليت به أمتنا إنما تجسَّد في شيوع هذه الظاهرة بين الناس، في الوقت الذي تنتمي فيه إلى ما يسمى بالعلم النفعي المستند إلى الاستهلاك المباشر، والثبات في التقليد بعد أن ترسخت مشاعر المودة وفق العادة المألوفة القريبة إلى النفس؛ التي تجعل تغيير ما ألفه الناس صعبًا؛ وكما قيل: ما تكرر فقد تقرر.

وبناءً على ما تقدم نرى أن الجمود على منوال معين يكبل المرء، ويقيد قدرته على الاختيار، ويجعله في حالة عطالة عن الاتصال بالعقل التحليلي، الذي يتصف بالتوليد والتأويل في قراءة الواقع، وكأنه لم يبلغ الرُّشْد؛ فتراه يلهث وراء تلك القوالب لأنه لم يكن قادرًا على إنتاج البديل... وحين هرب العقل العربي المعاصر إلى التراث أو المعاصرة الغربية وفلسفتها بوصفهما مُنْقذين له مما هو فيه من العجز والتخلف؛ انطبق عليه المَثَل (كالمستجير من الرمضاء بالنار)، أو أَشْبه قِصة الغُرَاب الذي أراد تَعَلُّم مشية الحَجَل

فأخفق. فللماضي أو التراث فلسفته الخاصة به[1]؛ وفق سيرورة الشروط الزمانية والمكانية؛ ثم إن خطر الوقوع في الماضوية أبشع بكثير من أي خطر آخر؛ لأن أي تصرف إنما يعني النكوص إلى الوراء، والارتداد إلى الخلف؛ وأي جديد إنما ينبثق من تفكير أبناء ذلك الزمان، على حين أن الحدث المستجد يتطلب معالجة مستجدة، ويفرض على التربية والثقافة والآداب والفنون والعلوم أن تخلق في الإنسان روح التوثب لقراءة الماضي قراءة علمية تحليلية تفيد منه ولا تتلقاه، أو تقع في عبادته. فإذا كان لا يتكوّن شيء خارج تربية الإنسان وتنشئته وتنمية معارفه ومبادئه ومنظوماته المتنوعة فإنه ينبغي للتربية أن تنمي فيه قدرته على التفاعل بالماضي لا أن تجعله صنمًا؛ ونرى أن الإنسان ليس مجرد حيوان يتلقف ما يريده منه صاحبه؛ من أجل حاجات ضرورية في حياته... وليس مجرد كائن منتج؛ فالدجاج والبهائم كلها كائنات منتجة؛ ولا تؤذي إلا إذا تركت على وَجْهها في كل مكان غير مخصص لمجالها الحيوي... فالإنسان كائن مفكر يتفاعل والأنساق المعرفية والوجودية المنفتحة على كل أفق، ويحلل أبعادها لينتج ما يجعله في صميم العصر الحضاري. إنه كائن منتج وعاقل؛ ومفكر؛ ومُدَبِّر ومبادر لكل شأن من شؤون الحياة؛ وهو قادر على أن يضع ما ينتجه في الموضع الصحيح؛ بإرادته الحرّة.. فإن لم يمتلك هذه الإرادة ـ ولو كان مكتسبًا للصفات السابقة كلّها ـ فقد كرامته الآدمية...

إن تعددية الأبعاد والمواقف والرؤى للإنسان الكامل يجعله قادرًا على إنتاج عمل متكامل؛ ورأي متكامل يضعه في المكان الصحيح...

فإذا كنا لا ننكر الإفادة من الماضي أو الحداثة المعاصرة أينما كانت؛ فلا يجوز لنا أن نصبح أتباعًا لكليهما، فلا التراث صَنَم يُتَعَبَّد له؛ ولا الغرب حاز أشكال التقدم والنهوض كلّها حتى يتوقف الزمن عنده؛ من دون أن ننسى أن للحداثة الغربية شروطها الخاصة بها طبيعة ووظيفة وهدفًا؛ لأنها ابنة تَرِثُ مواصفات آبائها وتاريخهم، ورؤيتهم وفق تراكمات خاصة بهم... ومن ثم علينا أن نملك الشروط نفسها التي أدت إلى انبثاق المدنية الغربية في دول الشمال لا أن نلهث وراءها من دون إدراكها، فنحن نعيد إنتاج ما تَخلّى الغَرْب عن إنتاجه... أو أن نصبح مجرد سوق استهلاكية لكل ما يبتكره... والشواهد كثيرة على ذلك في كل مجال... ولذلك ربما يذهب عدد منا إلى أن العَرَبَ خرجوا من التاريخ؛ لأنهم لم يعودوا مؤثرين فيه؛ ولم يعودوا قادرين على التفاعل

[1] انظر: مشروع القومية العربية إلى أين: ص:29–69

بالحاضر أو الواقع إذ تحوّلوا إلى نسخ مكرورة أو منقولة عن الآخر المتقدم باستمرار... ولذا لم يعد يملك العرب في حاضرهم إلا التقليد والنَّسْخ؛ وكلاهما لا ينتج إلا تخلفًا؛ لأنهم لا يملكون الشكل المبتكر....

ولا مراء في أن هذه الثقافة التي استوطنت في الأرض العربية جعلها تُغَيّب العقل المعياري المتوازن؛ والعقل العلمي المبادر؛ فضلًا عن أن العقل العربي ما يزال عقلًا تخيّليًا، مقلدًا أو عاجزًا عن مراجعة نقدية لكل ما يملكه من تراث، أو ما يفد إليه من ثقافة وتقنيات... وإذا ما حاول البحث عن طريق له للنهوض ابتلي بالخطابة الباهتة والابتذال الممجوج، والأفكار المتداولة، والتهور المفرط؛ والهوى المسرف، وهو المرض نفسه الذي ابتلى به في الاختيار والإفادة ممَّا لدى الغرب خاصة. وفي الأحوال كلّها ما زال العقل العربي ينحدر؛ ويجري وراء ما لدى الآخر كيفما اتفق.

فلا غرابة بعد ذلك كله أن يتلاعب الآخرون بالعرب؛ لأنهم لا يملكون التفكير العلمي الذي يسهم في القوة الإنتاجية المتطورة؛ التي تجعلهم يتحررون من الماضي الذي يتحكم فيهم؛ بوصفهم استمرؤوا تقليد القدماء في غيرما أمر وشأن. وكذا كانت حالهم مع الحداثة المعاصرة... فمن كان غير قادر على الابتكار والإبداع وتطوير حياته استُغِلَّ أسوأ استغلال وانتهى إلى التلاشي، أو العدمية... إذ صار بإمكان الآخر أن يقرر عنه شؤونه ويخطط له، ليجعله جزءًا من مصالحه... وهذا ما يشهد به التاريخ منذ اتفاقية (سايكس/بيكو 1916/5/16م) على الأقل. وهي التي أسست لنظام الوصاية على الوطن العربي وتمزيقه[1]؛ وراحت دول الغرب تحرك الأحداث بناء على ما تملكه من قوة صُلبة وناعمة؛ وعلى ما تسخره من مأجورين لخدمة مصالحها... وهو النهج نفسه الذي تقوم به ـ اليوم ـ دول عدَّة؛ بعد أن تطورت أساليب الهيمنة على العالم، وأُنشئت الأمم المتحدة لذلك؛ بمثل ما أنشئت الأحلاف العسكرية كحلف الناتو...

ونرى أن الخطر الغربي ظل يتعاظم حتى جاءت العولمة الأمريكية بشرورها كلّها وطفقت تهيمن على العالم؛ لتنفيذ مشروع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير[2]

ولعل ما تقدَّم، وغيره؛ يفرض علينا جميعًا أن نتوجه إلى معرفة ذاتنا وقدراتها، ومهاراتها؛ وفهم أبعادها في وجودها الطبيعي والاجتماعي والثقافي والسياسي و... وأن

[1] انظر: كتابنا: (التهويد من القدس إلى غزة: ص: 35.29)؛ و(سورية الاستهداف والمؤامرة: ص: 54- 58).

[2] انظر: سورية الاستهداف والمؤامرة: ص: 49-91.

تملك مقومات البحث العلمي المنهجي لإدراك أبعاد المشكلات والأزمات التي تهزّ كيان الأمة؛ ودراسة ذلك بوعي موضوعي بعيد عن رغبة المُراجعات المزيفة وسعي العقل النفعي إلى تسويغ ذلك لتجاوز أي مصيبة يمكن أن تحيق بالأمة...

إن حَلّ المعضلات العويصة لا يتّصف بمنهج التراكم المعرفي الوثني، ولا بأسلوب الانفعال والارتجال وردات الفعل، والتّسرع في اتخاذ القرار؛ لأن أي سلوك ينتمي إلى هذا الوصف هو اقتحام جديد للمجهول؛ وليس حلًا لأي إشكال مستقر أو طارئ... فالحَلُّ يجري وفق معرفة الذات الوطنية الجمعية للمجتمع وطريقة معالجتها وتطويرها؛ ولاسيما ما يتعلق بشريحة الشباب ووعيها التاريخي للهوية الوطنية والقومية[1].

ولعل هذا يضعنا أمام الآفاق التي نريدها لتأسيس إدراك علمي موضوعي للهوية الوطنية والقومية، إذ لم يَعُد خافيًا على أحد أن أَزمة الهوية أنتجت أزمات شتى في الواقع العربي، وخاصة إبان ربيع الخراب[2]...

ب . تأصيل الهوية الوطنية والقومية:

يرى الفيلسوف الوجودي (كير كجارد 1813–1855م): "أن الوجود الحقيقي إنما هو وجود الذات الفردية وحدها"[3]... فالذات هي الهوية الفردية التي تميز صاحبها بخصائص لا توجد في غيره؛ وهي خصائص موروثة ومُكتسبة، لأن الإنسان في جزء كبير من حياته يصنع ذاته... اللهم إذا استطاع أن يثريها بكل جديد مع حفاظها على الجوهر الموروث؛ ما يعني أنه يمكن أن يحسّن شروط الذات المكتسبة، وإن لم يكن قادرًا على تغيير وجوده الفطري... ولعل هذا يقوي لدينا الرأي الذي يؤدي إلى معرفة ذاتنا؛ لنعرف كيف نحقق تطلعاتنا؛ ومن ثم كيف نعبر عنها؛ وكيف نطورها؟. إن ذاتنا أو لنقل هويتنا الفردية تتعرض اليوم للانفصام من الداخل؛ وهو ما يتجسد في الذات الجمعية (الهوية الوطنية أو القومية) أيضًا.. فهي في حالٍ لا تَسُرُّ صديقًا ولا عدوًا؛ إذ تتنازعها الأهواء والعصبيات المتحجرة بمثل ما تتنازعها الإيديولوجيات المريضة.

وهذا يدعونا إلى معرفة دور الثقافة والتربية في الحياة؛ وكيف نسخر العلم والمعرفة والتقنيات والاختراعات والعلوم كلّها لبناء كل ما هو مفيد؛ وكيف نسخر قدرات الشباب

---

[1] انظر: كتابنا: قضايا في الفكر السياسي والقومي: ص: 27 وما بعدها؛ ص: 48–53).

[2] انظر: سورية الاستهداف والمؤامرة: ص: 24–29/40–41؛ والأزمة السورية وثقافة التكفير الإرهابي: ص:17–29.

[3] انظر: الفلسفة الوجودية: ص: 34؛ وانظر فيه: ص: 11–33–45.

وملكاتهم ومهاراتهم لعملية البناء وليس لعملية التدمير...، فالتنشئة التربوية الثقافية الوطنية المستندة إلى قيم المواطنة قادرة على صناعة جيل يملك الإمكانيات لمواجهة التحديات التي يتعرض لها الوطن. فتربية المواطنة ترى في الاختلاف ثراء؛ وفي التنوع وحدة؛ وتحترم حقوق الإنسان وواجباته في إطار العلاقة بين الفرد والمجتمع في ظل سيادة القانون... ولذلك تربي الشباب على الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين والوطن على السواء، ووفق عناصر المشاركة والعدالة والمحبة والمبادرة إلى كل جديد بأسلوب علمي، وتفكير نقدي.. والشباب مجالها الحيوي.. وحين تمارس التربية والثقافة وظيفة إيجابية نلحظ أن الشباب لا يشكلّون مشكلة اجتماعية وسياسية في عالم تتبدل فيه المفاهيم والرؤى والمشاعر بأقصى سرعة، ودون سابق إنذار، لأن الزمن لا ينتظر أحدًا... وهذا يعني أنه لا يجوز أن ندمّر الزمن الحيوي الابتكاري بحجة وجود طاعون الفساد أو الانحراف أو الجهل، أو الظلم، أو الاستبداد....؛ وهذا وذاك يثبتان أنه لا يجوز أن ندمر الذات أو نحطم الهوية الوطنية أو القومية بحجة أنها غدت غير قادرة على إصلاح الواقع، وأصبحت عاجزة عن تلبية حاجات الناس اليومية... ومن ثم حين يفرض علينا الزمن الحيوي الفعّال عملية التغيير والتطوير لا يحق لأحد أن يُخَرّب كينونة الهوية وبنية الدولة ومؤسساتها؛ وإنما يفرض عليه وجوب الحفاظ عليهما؛ وعلى التمسك بحقوق المواطنة وإجراء المراجعة النقدية العلمية الموضوعية لإصلاح التشويه فيها...

إن ما تقدم يحرضنا على الإشارة إلى مفهوم الانتماء الجامع الذي يحقق قيم المواطنة الأصيلة وأركانها[1] في صميم مبدأ (الوحدة في إطار التنوع) الذي ينبثق من البنية المجتمعية؛ عرقيًا وجنسيًا؛ ثقافيًا ودينيًا؛ سياسيًا واقتصاديًا... بنية مجتمعيه تحقق العدالة والمساواة بين أبناء الوطن الواحد؛ في ظل الحقوق والواجبات؛ ومبدأ سيادة القانون، الذي يثبت أن الولاء الأول والأخير ـ في ماهية المواطنة ـ للوطن؛ لأن انتماء كل مواطن في دولة ما للهوية الوطنية، وليس للعائلة، أو العشيرة، أو العرق، أو المذهب، أو الطائفة...

وما يؤسف له في هذا الاتجاه ذلك التنازع بين الولاء للوطن والولاء الذي يستند إلى الانتماء الأصغر وتغليبه على المواطنة مثل (العائلة أو العشيرة أو المذهب أو الطائفية؛ أو العرق إثنية وقومية؛ حزبية وتيارات علمانية ومحافظة، و....) لأن شهوة الجاه والمال

[1] انظر: قضايا في الفكر السياسي والقومي: ص: 18-44.

أو غريزة السلطة تحكمت في النفوس المريضة؛ كما تلاعبت الفتنة المذهبية والطائفية[1] بالعقول الهوجاء، بعد أن تغذّت بريح فاسدة قادمة من هنا وهناك، فلم يعد المواطن قادرًا على الاختيار وتأسيس المفهوم المعرفي للمواطنة حين أصيب ببلبلة المفاهيم؛ وجهل عدد كبير منها[2]، ثم أصيب بتعمية وغشاوة الهوس الديني السياسي والإيديولوجي؛ لأنه فقد الروح الوطنية... وإذا دب الصراع في بنية المجتمع، وسادت غريزة القطيع فيه تحطمت عوامل قوته، إذ لم تَعُد لديه هوية ثقافية حضارية ممتدة في التاريخ القريب والبعيد، ولاسيما حين ضاعت عناصر الالتقاء على العَدُو المشترك؛ سواء تجسد في الاستعمار الأوروبي الحديث؛ أم الاستعمار الاستيطاني الصهيوني المتوحش، وقد يكون أعداء الأمة العربية نجحوا في إثارة البلبلة في مفاهيم الأمة الأصيلة حين تبنوا ما يسمى بالإسلام السياسي الذي ابتعد عن مبادئ الدين الحق؛ وغرروا ببعض أبناء الأمة؛ وخاصة من كان من الرُّعاع (الحُطَمة)[3]... ثم زحزحوا الاتفاق على مفهوم العدو... وراحت العصابات التكفيرية ـ باسم الدين ـ تضرب رقاب أبناء الوطن[4].. و"أصبح شيوخ الجهاد في هذا العصر شيوخ الغدر والخيانة، الذين دمروا البلاد وأهلكوا العباد.. ومع ذلك بقي من الناس من يصدقهم ويأتمنهم، ويتبعهم"[5] ولا سيما من غُسِل عقله من شريحة الشباب. ولذا ندرك أن الوعي الوطني المُخلص؛ والحَدْس الصادق والأمين على الأمة العربية وإبراز القيم الخلقية الأصيلة يبقى السبيل للحفاظ على الهوية التاريخية؛ فإذا فقدت الأمة وعيها العلمي الموضوعي ضاع كل شيء؛ لأن غيابه[6] يعني سقوط منظومة القيم الخلقية والدينية؛ وانتشار التضليل والزيف والتزوير؛ وتدمير الوطن... ثم لابدَّ من أن يكون لهذا الوعي قادة وأرباب شرفاء وأحرار من المثقفين والمفكرين؛ والسياسيين يفرقون بين الأديان بوصفها عقيدة خَيِّرة؛ أو بوصفها وسيلة سياسية وتكفيرية لمصالح دنيوية[7]. ولذا قال (أنطونيو غرامشي 1891 . 1937م): "عندما يكتسب المَرْء تصوره عن العالم ينتمي المرء دومًا إلى تجمع خاص؛ وهو كل ما يضم العناصر الاجتماعية التي تتشاطر

[1] انظر: القول الفصل في طائفية العصر: ص: 17–30 /53 أو ما بعدها.

[2] انظر: هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية: ص: 205.

[3] انظر: الدم السوري بين الوازع والرادع: ص: 90–91.

[4] انظر: في ذلك كله كتابنا: الأزمة السورية وثقافة التكفير الإرهابي؛ والدم السوري بين الوازع والرادع: ص: 38–43/ 48/ 64.

[5] انظر: القول الفصل في طائفية العصر: ص: 13.

[6] انظر: الدم السوري بين الوازع والرادع: ص: 92–95.

[7] انظر: المرجع السابق: ص: 123–140.

نمط التفكير والتصرف نفسه. نحن جميعًا أتباع لنمط من أنماط الالتزام الفكري أو العقيدي ونحن دومًا إنسان ـ ضمن ـ القطيع أو الإنسان الجمعي".

إن ما يحدث اليوم من تنازع بين شباب الوطن يؤكد انهيار منظومة القيم الوطنية والخلقية والدينية؛ ومبادئ العدالة الاجتماعية... فأين نحن من قيم التسامح والإخاء؛ واحترام مبدأ التنوع؛ وتقدير الآخر؛ أيًا كان جنسه ولونه وعرقه ودينه؟ ومن ثم قبل كل شيء أين نحن من وحدة الأمة العربية التي حَضَّنا الله على التمسك بها؛ والتمسك بوحدة الانتماء والتفكير؟!! كأننا لم نتعلم من الطبيعة ما تزرعه في الوجود من فهم التنوع في صميم الوحدة؛ وهو مُجَسَّد في مظاهر الوجود كلّها من شجر، وحجر؛ وورد وزهر وشوك وخَضِر... فالتعدد في صميم الاتفاق والاختلاف يكسب الحياة تنافسًا؛ وقوة وبهاءً؛ ثراءً وغناءً وجمالًا... فالتنوع توهج يهزم الجمود والتحجر، والانغلاق والانعزال... إنه تسابق في الأفضلية للتمظهر الأعلى بالوجود الحيوي الصادق الذي يتجلى في مكونات المواطنة[1] المنتجة؛ والهوية الثقافية الجامعة والمركبة[2]... ومن يبحث عن أي منهما ليحب ذاته ويحقق مصالحه فهو مستوطن، وليس وطنيًا؛ لأن المواطنة أو الهوية هي الذات والوطن في وقت واحد تتمثل بالولادة والنشأة؛ والانتماء التاريخي الثقافي الاجتماعي العاطفي الذي يحدد ملامح الوجود بكل أمة من الأمم ـ. وهو وجود يتحرر من التخلف والانحطاط، ولا سيما إذا ابتلي بالانغلاق والأهواء والعصبيات التي تتأجج بفعل الولاء الأصغر؛ الذي يجعل أي مجموعة منغلقة على ذاتها؛ ومن خرج عنها غدا خارج الدائرة المعترف بها... فينطبق عليها المثل المعروف (إذا جَنَّ القوم جن معهم)...

إن اندلاع جملة من الصراعات بين أصناف الولاءات يؤكد وجود أزمة مستعصية في الرؤى الفكرية أو الدينية أو السياسية أو الاجتماعية في الانتماء والهوية الوطنية... ولعل هذا يرتبط بالمفهوم النفعي المباشر للمكاسب التي تبتغي هذه الشريحة أو تلك أن تحققها على حساب الأخرى، وهو في الوقت نفسه انقلاب على النمطية المعرفية الجامعة، ولو كانت موروثة. وهذا يحدونا إلى التوقف عند حديث مركز عن آفاق المستقبل الذي تمثله شريحة الشباب لتجاوز أزمتنا الراهنة.

---

[1] انظر: قضايا في الفكر السياسي والقومي: ص: 18-27.

[2] انظر: مشروع القومية العربية إلى أين: ص: 105.

6 ـ الشباب... آفاق وأبعاد:

لا مراء لدينا في أن العقل العربي ـ عامة ـ يميل إلى مبدأ الجهد الأقل؛ واللجوء إلى كل ما هو سَهْل وجاهِز؛ وينفر من الغموض والتعقيد، ويتماهى في الخوف من المجهول... ويَسْقط في التخيل الكاذب الذي يجافي كل أشكال المبادرة البعيدة عن التطلع إلى التقدم والنهوض؛ أي إن معالجته للواقع المأزوم لم يكن موضوعيًا ولا علميًا ـ على الأغلب ـ وكأنه لم يدرك أن هناك زمنًا يفرض سننه على البشرية قاطبة؛ إذ يخلق أمورًا ويميت أخرى... فإذا كان بعض العلماء والمفكرين والمثقفين المميزين لا يركنون لكل شيء تقليدي، بوصفه يؤدي بهم إلى نمطية معرفية مكرورة تتصف بالتخلف والتراجع المستمر فقد بقي عدد غير قليل منهم ينتفع بهذه النمطية، وكسب منها مكاسب هائلة... ونرى أن لكل عالم إشراقاته المحكومة بشروطها؛ ولكل مبدع أفكاره وتصوراته... فإن المجتمع ـ أي مجتمع ـ يحتاج إلى التغيير الموضوعي المنهجي العلمي على كل مستوى وصعيد... ثم إن أي حقيقة ساطعة لا تظهر إلا إذا تحقق المرء من جوهرها في إطار البراهين والنتائج، وهي التي تؤسس المشاعر الصادقة نحوها؛ وتتعزز بمقدار ما تقدمه من نفع خاص وعام؛ وتناغم اجتماعي يليق بالثورة المبنية على الإرادة والوعي؛ والغواية المعرفية والتقنية والإعلامية؛ وتدفع بالعلوم قُدُمًا إلى مرحلة الانتفاع منها على الصعيدين الفكري والمادي؛ وجعلها قابلة للتطبيق في الحياة؛ وليس مجرد توصيات، أو قرارات توضع في الأدراج. فكم من بحث علمي كلّف الموارد الباهظة، وتوصل إلى آراءٍ مفيدة لكنها ظلت مهملة، ولم يستفد المجتمع منها... وهذا يضعنا أمام الأفق الأول.

أ. المراجعة العقلية النقدية:

تحتاج معرفة الذات وتوازنها، ومهاراتها، وقُدرتها على التأثير إلى مراجعة نقدية عقلية شاملة ومتكاملة تستند إلى العلم الموضوعي والعقل الإدراكي. فما مَرّ بالأمة لم ينطبق عليه هذا التصور، بدليل ما انتهت إليه من خَلَلٍ اجتماعي وفكري وديني واقتصادي وإعلامي وتقني و... ما يشي بأنه لم يُعالج المعالجة الصحيحة الصادقة والدقيقة...

إن الموقف العلمي الموضوعي من الأزمة يستند قبل أي شيء آخر إلى دراسة أسبابها على كل صعيد ومستوى[1]؛ داخليًا وخارجيًا ولا سيما ما يتعلق بحاجة الشباب

[1] انظر: الدم السوري بين الوازع والرادع: ص: 99–122.

وطموحهم... وهذا يضعنا أمام الحديث عن فرص العمل، وظاهرة البطالة التي أدت إلى كوارث في الإنتاج؛ والنهوض؛ وفي النفوس والحياة؛ وَفْق دراسة موضوعية لحاجات الريف والمدينة.

لذا نحن أحوج ما نكون إلى إيجاد العلاقة المنطقية والمتوازنة بين الذات والآخر؛ وتوسيع قاعدة المصلحة العامة بالتعاون الإيجابي بين أفرادها؛ ومن ثم بين الشباب وعناصر الإنتاج الأخرى التي تحقق الاستقرار النفسي والذهني في ضوء تبني منهج علمي مبني على عقل نقدي يتجنب طرائق النقل والتلقين والحفظ... ويعتمد مفهوم المبادرة والتفكير النقدي للتخلص من الكوارث التي وقعت؛ ويتأصل في برنامج يفجر الطاقات الكامنة في الشباب في عملية البناء لا في أساليب الهدم...

ومن ثم نحن محتاجون إلى العقل الجمعي المحكم في إطار إقامة المشاريع الصغيرة والكبيرة، والورشات المتضامنة والمتكاملة يقودها فريق عمل جماعي منظم ومهيأ علميًا وعقليًا؛ بعيدًا عن التخييل الخداع، والتوهم المضلل....

بمعنى آخر تحتاج الدولة الوطنية إلى الإفادة من العلم القائم على البرامج والرؤى المستندة إلى إدراك واعٍ للواقع... فقوة العقل ليست بقوة الرغبة والشهوة للحصول على شيء ما؛ وإن كانت قوة الرغبة مطلوبة لبقاء الحياة؛ وكذا قوة الغضب والعصبية للمحافظة على التنافس الصادق الشريف وليس للكراهية والحقد والحسد والضغينة... فالدولة الوطنية تبني حياتها على أسس علمية موضوعية تستند إلى قوة العقل الإدراكية الواعية؛ والحكيمة التي تضبط الحياة؛ والمشاعر وتوجه الطاقات والمهارات إلى ما فيه صلاح الوطن وتقدمه، وهذا ما نستشفه من الحديث الشريف "ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب".

إن تسخير قوة العقل، وقوة الجسد عند الشباب ينصب على تطوير الذات الوطنية بعيدًا عن مفاهيم الاستحواذ؛ والاستغلال والسيطرة والأنانية والإلغاء والإقصاء هو أساس النهوض... أي لابدَّ هنا من تبني عملية تربوية تعليمية متكاملة؛ تستند إلى البرامج العلمية الموضوعية والكفاءة المعرفية؛ والقدرات المطلوبة للتقدم... والتوزيع العادل للثروة في إطار الحقوق والواجبات؛ وإيجاد فرص العمل المناسبة... وإدارتها بأسلوب علمي؛ في ضوء تربية المشاركة الوطنية في نفوس المنخرطين بالعمل ومؤسساته، مع أهمية تكوين ورشات عمل جماعية؛ ومشاركة واسعة في القرار... فلا يمكننا أن ندعو إلى

وحدة الوطن في ظل التنوع إذا بقي التصور الفردي مسيطرًا على الذات الإنسانية.. فأي عبقري مهما بلغت قدراته لا يمكنه أن يصنع شيئًا إذا كان وحيدًا؛ ما يثبت أن قوة الوطن بوحدة أبنائه، وفق الكفاءات والقدرات من جهة؛ ووفق تكوين روح الفريق الواحد من جهة أخرى ـ إن هذا الاتجاه يخلق روح المنافسة بين الأجيال، وهي الروح التي تعزز فكرة التشاركية الوطنية، وتعلي من شأن العمل التطوعي؛ ما يعني أن تشجيع مفاهيم العمل التطوعي يعدُّ فضاءً للإنتاج وامتصاصًا لحالات الاحتقان الكثيرة التي أصابت كثيرًا من الشباب... ولعَلَّ الانخراط في المنظمات الشعبية والنقابات المهنية ينظم مثل هذا العمل؛ ويزيد فعاليته في تقوية روابط العمل الوطني، ومن ثم الانتماء الوطني على أن نطور هذه المؤسسات الاجتماعية لتكون ملبية للحداثة التقدمية المتجددة.

وهذا يحدونا إلى حديث موجز عن التطابق بين المدخلات الوطنية ومخرجاتها.

ب ـ المطابقة بين المدخلات والمخرجات:

إن النهوض والتقدم يحتاج على الدوام إلى وعي الثروات البشرية للأمة والثروات الطبيعية والاقتصادية والفكرية التي تملكها... وإيجاد السبل المناسبة لها وتوجيهها توجيهًا علميًا موضوعيًا يعتمد على برنامج عملي يخدم أبناء الوطن من جهة ويرتقي بالنهوض الوطني على كل الصُّعُد من جهة أخرى...

وهذا كله يتطلب منا أن نكون سادة وأحرارًا في استثمار الطبيعة واستغلالها استغلالًا منطقيًا وعلميًا؛ وكذا الأمر مع التراث والثقافة؛ وثقافة الآخر. ومن لم يكن سيد نفسه لن يكون قادرًا على التصرف بذلك؛ ومن لم يكن عادلًا وحُرًّا في طبيعته وجوهره قهر العباد والبلاد، ووقع في الأنانية والاستحواذ؛ وسقط العقل في الخلل والاضطراب والشذوذ...

إن ذلك كله يدعونا إلى تحويل أفكارنا وآرائنا ومشاعرنا ومواقعنا إلى أفعال إيجابية مؤثرة ومفيدة لتصبح طباعًا مغروسة في ذواتنا؛... ولن نكون قادرين على تغيير غيرنا إذا لم نُغَيّر أنفسنا بالأسلوب العلمي الصحيح... وهو التغيير الذي يناسب الحقائق الكونية؛ والشرائع السماوية، لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾؛ ومن ثم طالبنا سبحانه وتعالى أن تطابق أقوالنا أفعالنا؛ وويل لنا إن فعلنا غير ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا؛ لِمَ تقولون ما لا تفعلون؛ كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾. وأي تطابق بين القول والفعل ينبثق من الذات الفردية؛ في مراقبتها ومحاسبتها

لنفسها على أي خطأ تقع فيه من أجل البدء بعملية تغيير الآخر نحو الأفضل؛ ولذا قال أبو الأسود الدؤلي[1]:

ابدأ بنفسك وانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وتجري هذه المحاسبة بناء على منظومة القيم الخلقية والدينية والوطنية الأصيلة؛ المعتمدة على المفاهيم الدقيقة بعيدًا عما طرأ عليها من تشوّهات واختلافات نتيجة تأثير الأيديولوجيات والتيارات السياسية والدينية المتطرفة... فما يحُزُّ في نفوسنا أن كثيرًا من الشباب بدؤوا يرفعون الصوت عاليًا في نقد ما نشأنا عليه من قيم المواطنة والتسامح والإخاء؛ وشرعوا يفرضون رؤاهم السياسية والدينية بوصفها الرؤى التي تنسجم مع تطلعاتهم؛ وإن كانت تخالف جوهر الدين وتعاليمه. ومن ثم مارس عدد منهم الإرهاب؛ ورأى أنه على حَقّ... وهذا يفرض على المجتمع ومؤسساته دراسة التغيرات التي طرأت على ثقافة الشباب، وفَهْم المؤثرات التي جعلتهم يصلون إلى أن يكونوا خنجرًا مغروسًا في ظهر وطنهم.

ومن يتمعن فيما نحن فيه يجد ـ للأسف ـ أننا غدونا ـ في عدد من المجالات ـ أدواتٍ تنتج ذاتها بأشكال سوداوية مكرورة؛ وإن وجد بعض المفكرين والباحثين الذين يقدمون لنا في مؤتمراتهم وندواتهم ما يفيد، بيد أن ما توصلوا إليه لم يكن ليبصر النور، إمَّا لأننا لا نملك القدرة على تنفيذ ما أبدعوه لعدم وجود الخبرة الكافية لذلك، وإما لأنّنا مجرد أتباع؛ وإمَّا لأننا أصبحنا مستهلكين للقوالب الجاهزة والمنتجة في أماكن أخرى، و....

ثم إن مراكز إنتاج الخبرات؛ والمعارف والتقنيات لم تعد مواكبة لمتطلبات الحياة؛ فخِرّيج الفلسفة والتاريخ واللغة العربية والجغرافية قد لا يعمل في مجال تخصصه ـ إذا عمل ـ وخريج الشريعة وَجَد نفسه في صميم غريزة الطقوس الدينية وتغييب العقل والإمكانات المعرفية لأنه غير قادر على العمل في الحقل الذي تعلمه...

وكذا يقال في الأقسام العلمية الجامعية كلّها؛ إذ أصبحت أماكن لتفريخ البطالة، أو البطالة المقنعة وضاعت الجهود والإمكانات التي بُذلت، وأهدر الزمن الذي أكل عُمْر الإنسان في التحصيل العلمي لتثميره، والإفادة منه... وكأننا قمنا بعملية قتل لعوامل كلّها الإبداع التي تستهدف النهوض... في الوقت الذي حدثت فيه قطيعة بين النظرية والتطبيق؛ وبين الفكر والعمل وبين المنتج الثقافي والسياسي؛ وبين التطور والواقع؛

[1] ديوان أبي الأسود الدؤلي: ص: 404.

وتراكمت البطالة بين المثقفين والباحثين؛ فزادت عوامل الإحباط في مراكز البحوث والمؤسسات الفكرية والإعلامية؛ وكثر النفاق والابتزاز والاستهلاك؛ اللهم إذا كانت تلك المراكز قد أنجزت شروطها الموضوعية المنتجة للإبداع. فنحن نراها ـ في أحسن الأحوال ـ منتجة لقوى مستهلكة لما تحتاج إليه في الحياة... ولمّا عجزت السياسات المختلفة عن الوصول إلى الحلول الناجعة؛ شاعت مقولة "قُلْ ما تَشاء؛ ونحن نفعل ما نشاء" وانتشر الإعلام المزور الذي يُرَوّج لمشاريع وهمية؛ وغير حقيقية؛ ورجال لا يعرفون من الحياة إلا الاستحواذ والابتزاز وشراء الضمائر...

ولا يمكن الخروج من ذلك كله إلا بوضع البرامج العلمية الموضوعية التي تَسُدُّ الثَغْرة التي حدثت بين قوى الإنتاج وأدواته، وبين حاجات المجتمع؛ وتطلعاته إلى النهوض؛ ومواكبة المجتمعات الحية... لابدَّ أن تكون السياسة المرسومة للثقافة والتربية؛ والمؤسسات الدينية والعلمية والتعليمية مستمدة من الواقع وحاجات الأجيال التي تولد تفكيرًا مبدعًا؛ وتخترع كل يوم إنتاجًا مواكبًا لمتطلبات العصر... ما يعني أن تغيير أدوات الإنتاج وتطويرها إنَّما يجري بما تبنى عليه؛ وعلى كل مستوى وصعيد... وهذا يفرض علينا جميعًا مسؤولين وأفرادًا مؤسسات ودولة أن نتصف أينما كنا بصفات التطلع، أو الطموح الوطني لجعل الشباب في صميم عملية التنمية الشاملة؛ وأبرزها:

ج . إيجاد مناخ الحرية للإنتاج والإبداع:

الحرية قرينة الإنسانية؛ بوصفها حقيقة وجودية[1]، وهي منبع الإبداع والابتكار، وإنها الحرية المسؤولة والمنضبطة بالآخر[2]. وما يؤسف له في هذا المقام أن الناس عامة والشباب خاصة فهموا مبدأ الحرية في الحياة فهمًا مغلوطًا به، حين ربطوه بحرية الذات بعيدًا عن الآخر، وبممارسة أشكال الغرائز والشرور كلّها، وتحطيم منظومة القيم الأصيلة كلّها لإقامة حياة المجتمع والوطن،...ولذا مارس بعض الشباب الانحراف الثقافي؛ والسخف الإعلامي؛ والهوس الديني؛ والهَرَج السياسي؛ وأشكال الشعوذة كلّها في الرقص على حبال الحرية الذاتية... وساعدهم على ذلك كله عالم يَدَّعي ممارسة الديمقراطية الشخصية؛ على حين هو مكبل بأصناف العبودية والاستعباد لرأس المال والإيديولوجيات والمافيات كلّها...

[1] انظر: الفلسفة الوجودية: ص: 63–72.

[2] انظر: المرجع السابق: ص: 73–75.

فإذا كان الإنسان حُرًّا في اختيار ما يريد بعد أن يكون ملك وعي الذات والعالم فإنه ليس حُرًّا في الحيّز الجغرافي والطبيعي والاجتماعي... فقد وُلِد في مكان ما؛ وأسرة ما؛ وعقيدة ما؛ ثم نشأ وفق منظومة قيمية فكرية ودينية واجتماعية لم يكن له يَدٌ فيها... لذلك تلقف قيم الحياة كلّها دون فِعْل مباشر من قبله؛ ومن ثم عليه أن يلتزم مبادئ المجتمع؛ وضوابطه الخلقية والقانونية لأنه جزء من كل. ومن هنا تصبح الحرية لدى الكبار ـ من بَعدُ، وإثر الثقافة والوعي ـ إرادة قائمة على إرادة الحياة، كما قال شوبنهاور على نحو ما... ومن ثم هي قدرة يكتشفها المرء بذاته في ظل وجود الآخر الذي يحتاج إلى احترامه وتقديره وعدم الاعتداء عليه... وهذا يوافق الشرائع السماوية والقوانين الاجتماعية والمبادئ الإنسانية كلّها... فلا حرية خارج نطاق التربية والثقافة والقانون، ولا حرية خارج حدود احترام الآخر... فالحرية ظالمة إذا أضَّرت بالآخر... ومن خالف ذلك كان مسؤولًا عن أفعاله ومحاسبًا عليها ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ و﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه؛ ومن ضَلَّ فإنما يضلّ عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (الإسراء: 15، 17).

ولعل الحديث عن إيجاد مناخ الحرية الإيجابي والحقيقي يحدونا إلى بيان عدة أمور مرتبطة بها؛ للنهوض الاجتماعي.

1 . الإرادة:

الإرادة طاقة جبارة ترسم حدود العقل العملي؛ وتؤطر الفعل تجاه الوجود الإنساني، وتجاه الآخر، لأنها جزء يتكامل والإرادة العاقلة والفاعلة لرسم مفاهيم الحرية في الاتجاه الإيجابي... والإرادة قدرة خَلاَّقة تكمن في النفس؛ وتتشكل بأفعال وأقوال ترتبط بالوعي والقدرة على التأثير؛ ولذلك أطلق عليها العلماء نور اليقين الذي يضيء ظلمة الذات؛ ويصحح جنوحها السلبي؛ ممَّا يعني أن الوعي جزء من الإرادة الحرة التي تمنح المجتمع قدرة على تجاوز أزماته؛ وإخراجه من تُرَهات السلبيات والعجز؛ في سبيل السير على دروب النهوض والتنمية؛ فالمجتمع الذي لا يملك الإرادة فاقد لشروط النهوض...

ويؤكد التفكير العلمي الموضوعي أن الإرادة الفردية حرية، وهي ترادف حرية المجتمع في صميم التماهي والعلاقة المتوازنة بين الذات الفردية والذات الجمعية من غير قَهْر أو خوف، فلا إرادة لأي منهما منفردًا؛ ولا حرية للفرد بغير وجود الآخر... ما يعني أن الحرية مسؤولية. وهذه صفة أخرى تدعونا إلى الحديث عنها، في إطار ما نبحث فيه.

2 . المسؤولية:

الحرية مرتبطة بالعقل الحر والوعي العلمي القادر على الاختيار وتبني المعايير المرجوة؛ مما يؤكد الاستقلالية والمسؤولية عن الفعل الإرادي الذي ينجزه الإنسان[1]... ثم إن حرية الوطن لا تتحقق في إطار أفراد مستعبدين أذلاء؛ غير قادرين على امتلاك إرادتهم... ما يثبت أنهم غير مسؤولين عن تصرفاتهم... ولذا نرى أن بناء أي وطن وفق منهج سليم إنما يكون بمقدار ارتباط الفرد بهِ وانخراطه في شؤونه، وتحمّل ذلك بمسؤولية خلقية ووطنية...

وحينما يتحلى المواطن، ولا سيما الشاب بالمسؤولية الخلقية والوطنية يصبح لزامًا عليه أن يتجنب العنف والأذى لأن الحقَّ والخلق يأنفان من أي عدوان، ثم عليه أن يبتعد عن الكسل واللامبالاة؛ لأن المسؤولية تستند إلى المبادرة في الفعل الحُر الذي يحقق الأمن والأمان للآخر... فالمسؤولية تكليف ذاتي من قبل وجدان راقٍ يعتمد المحاسبة الذاتية الدائمة والمراجعة المستمرة للتفريق بين الضار والنافع، وفق مقولة عمر بن الخطاب: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم)... وهذا كله يضع المجتمع، بما فيه الشباب في إطار الجزاء الأوفى لرضى الذات والآخر...

أي إن المسؤولية تضع قدرات الشباب ومهاراتهم في بؤرة تطوير الذات نحو الأفضل؛ والنهوض في الوطن بشكل متصاعد... وهذا يعني تطوير المهارات والقدرات بمعرفة الإيجابيات والسلبيات التي تتصف بها الذات... وحين يلجأ كل فرد لعمليات القياس في صميم الذكاء النظري والعملي؛ وفي إطار منظومة العمل والقيم الأصيلة كان عليه أن يضع ذلك كله في سياق البرامج الوطنية الجماعية، بعيدًا عن كل ما هو تقليدي وقديم؛ وعن كل ما هو وافد ومستورد لا ينسجم مع عملية التنمية الشاملة...

وإذا كان هذا نمطًا من حوار الذات ورغباتها على المستوى المعرفي فإنه يستدعي اعتماد حوار الذات والآخر بوصفه أسلوب تنمية ونهوض، وليس أسلوبَ رياءٍ ونفاق، وهو حديثنا الآتي؛

[1] انظر: الأسس الفلسفية للعلمانية: ص: 372–425.

3 . حوار مع الآخر:

الحوار بأنواعه كلّها، وفلسفاته يُعدُّ المنهج العلمي المعرفي الموضوعي للارتقاء ويستند إلى المثاقفة واحترام الآخر وثقافته؛ في القديم والحديث وفي صميم المسؤولية الفَعَّالة في إرادة التغيير المطلوبة... فالحوار التزام خلقي تجاه الذات أولًا وتجاه الوطن وأبنائه ثانيًا.

ومن ثم يصبح حوار شريحة الشباب ضرورة وطنية وخلقية فيما بينها من جهة؛ وفيما بينها وبين بقية شرائح المجتمع من جهة أخرى. فإذا كنا نقر بالاختلاف الموضوعي في الطبائع والمواقف والآراء والمشاعر، ونحترم ذلك؛ فإننا نقدّر عاليًا الاتفاق على المبادئ والقيم التي تدفع الإنسان إلى السمو والارتقاء... أي إذا كان الليل والنهار يختلفان في الطبيعة والماهية فإنهما جزء من ماهية دوران الزمن وجدلية التضاد التي تحقق استمرار الحياة...

وإذا كنا أكدنا أهمية الحوار وفوائده فلابدَّ من أن نشير إلى أهدافه المتوخاة... وحين تكون هذه الأهداف نابعة من وظيفة الشأن الذي سيتم تداوله في الحوار، فعلينا أن نخلص النية؛ ونتحلى بالإرادة الوطنية للثقة بالآخر، ونتقبل أي رأي ما زال مدار خلاف، أو نقاش... والحوار ينبغي أن يظل محصورًا بالوسائل التي توصله إلى نتائجه المرجوة... إذ يمنع الغضب، أو الجدل لمجرد الجدل؛ أو المناورة؛ والكذب والغِش...

وأخيرًا نقول: إذا كانت سورية بلد التنوع الثقافي والديني والسياسي؛ وبلد الأنموذج الراقي في التعايش المشترك، فإنها اليوم تتعرض لمحنة كبرى تتطلب من الشباب قبل غيرهم الوعي الوطني الذي يعيد تصحيح البوصلة نحو الحفاظ على الدولة الوطنية؛ لأن أعداء الوطن والأمة يستهدفون تدمير ذلك الأنموذج... ومن حق الجميع أن يتداركوا المخاطر التي حاقت بهم؛ وشوهت هويتهم الوطنية بمثل ما طفقت تعمل على قتل الهوية القومية... وعليهم دراسة عميقة لأبعاد الأزمة وآفاقها المستقبلية وهي تتجاوز السنوات الست؛ ومن ثم تعمل على مواجهة عوامل الفتنة والإرهاب كلّها بفعل إرادي علمي واعٍ للوصول إلى الحفاظ على ما تبقى لنا من أمل في إعادة البناء والإعمار...

ولكل امرئ ما سعى

المراجع والمصادر:

1- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت.
2- جورج الطرابيشي: هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، ط2، دار الساقي، بيروت، 2008م.
3- حسين جمعة: الأزمة السورية وثقافة التكفير الإرهابي، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2015م.
4- حسين جمعة: التهويد من القُدْس إلى غزة... إلى، دار الشرق، دمشق، 2014م.
5- حسين جمعة: سورية الاستهداف والمؤامرة، دار الشرق، دمشق، 2013م.
6- حسين جمعة: قضايا في الفكر السياسي والقومي، دار الشرق، دمشق، 2009م.
7- حسين جمعة: مشروع القومية العربية إلى أين؟، دار الفَرْقد، دمشق، 2006م.
8- ديوان أبي الأسود الدؤلي: تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط1، بيروت، مؤسسة إيف، 1982م.
9- زكريا إبراهيم: الفلسفة الوجودية، دار المعارف بمصر، سلسلة (اقرأ، 161).
10- عادل ضاهر: الأسس الفلسفية للعلمانية، دار الساقي، بيروت: ط2.
11- علي الشعيبي: الدَّم السوري بين الوازع والرادع، دار الشرق، دمشق، 2014م.
12- علي الشعيبي: القول الفصل في طائفية العصر، دار الشرق، دمشق، 2014م.
13- ميشيل رامبو: عاصفة على الشرق الأوسط الكبير، ترجمة: لبانة مشوح، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2016م.